وحشنى الفول المدمس

حكايتى اليوم مع الفول ليست من وحى خيالى، لقد عصفت بى الأقدار بأن أكون يوما بالقرية، وما أدراك ما القرية؟! اليوم هناك بألف يوم، وما أجبرنى إلا حفنة من الدولارات حتى أكون أحسن حالًا مما أنا فيه وكأمثالى من أهل وطنى، كلنا نريد أن نكون ميسورى الحال، لكن غربتى ليست أكثر حالًا، إنها آلام وأوجاع لا تطاق حقيقة: كان يقيم معى بعض الأقارب وبعض الجيران، لكن كل هذا لم يسد حاجتى ولا اشتياقى للأهل من بيتى والزوجة والأولاد، إنها لوعة الحبيب لمن يحب، كل يوم عندما أستيقظ من نومى أتذكر كلمة: يا صباح الفل يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، كلمات كلما خطرت على بالى يزداد ألمى ويشد الصداع رأسى شدًا، وتذكرت أيضًا عندما تنادى أم مريم وترد عليها جارتها أم محمد بصباح النور، هذه كلمات عشناها ونعشقها معًا مهما صار بنا المطاف، تذكرت أيضًا عندما تتبادل النساء بالأخذ والعطاء فيما بينهم من ثوم وبصل، حياة جميلة نشأنا وتربينا عليها، ولن أنسى مشاركة أبناء الجيران فى الأحزان والمسرات وكلٌّ يتسابق لكى يكسب روح الأخوة.

وأنا أتمشى كعادتى بخطوات متثاقلة بعد تعب اليوم صادفنى دكان لبعض المأكولات واقتربت منه قليلًا فشممت رائحة الفول، لقد رد إلىَّ الروح للحنين إلى الوطن، فاقتربت أكثر حتى لمحت بأن صاحب المطعم مصرى من ابتسامته العريضة التى تملأ وجهه، وأثناء حديثى معه اتصلت بى زوجتى وقالت لى: لقد تأخر اليوم ابنى محمد.. انشغلنا عليه وكان عمه يحضره إلى البيت كعادته دومًا أخذ ابنى محمد يبكى بشدة حتى أخذه زميله بالفصل ويدعى جورج قال لابنى: تعالَ يا محمد أنا أوصلك للبيت، وأمسكوا بأيديهم البعض حتى أوصلوه البيت، وهنا انغمر ابنى فى البكاء، فقالت له زوجتى:ما يبكيك؟!فحكى لها القصة وعلمت منه بأن زميله جورج بالفصل هو الذى عطف وحن عليه من البكاء، فقالت زوجتى: ربنا يخليكم لبعضكم. هذه هى بلدنا، فطرة تربينا عليها مهما فعل الحاقدون والمتآمرون على مصرنا الحبيبة فأنا لم أكره الفول المدمس الذى يعتبر جزءًا من حياتنا وينبت أجسامنا من خيره مهما أكله الأكابر، ومهما بعدت عن الوطن، إن الفول جزء من حياتى وحياة الفقراء أمثالى، ومهما حل الكباب في بيتى فلابد أن يتخلله الفول.. والحمد لله.

مجلة النهار عدد: ابريل 2009 م